مجلة روافد
للدراسات والأبحاث العلمية في العلوم الاجتماعية والإنسانية
المجلد 06 (عدد خاص) 2022 ص ص 408-434

استراتيجيات الخطاب التربوي والإصلاحي
عند الشيخ محمد البشير الإبراهيمي
Educational and reformist discourse strategies of Imam Al Ibrahimi

خليفة بولفعة *
المدرسة العليا للأساتذة عبد الرحمن طالب - الأغواط (الجزائر).
البريد الالكتروني المهني: b.khelifa@ens-lagh.dz

تاريخ الإيداع	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2022/01/05	2022/04/03	2022/04/16

الملخص: يهدف هذا البحث إلى التعريف بأهم إستراتيجيات الخطاب عند الإبراهيمي، ومقومات منهجه التربوي والإصلاحي الأصيل، بغية إبراز قيمته التربوية والمنهجية. مبرزين أهم مكونات شخصيته، تمكنه من الدراسات النفسية والاجتماعية ومعرفته بالطبائع والغرائز البشرية وسيكولوجية الجماهير. وقد اعتمدنا في ذلك على مقاربة نظرية عند كل من أرسطو مؤسس نظرية الحجاج في البلاغة الكلاسيكية، وبارلمان Cha Perelman مؤسس البلاغة الجديدة بمنظور فلسفي. أما الثانية فهي نظرية أفعال الكلام التي أن اللغة ليست إخبارا أو وصفا للعالم، بل فعل يهدف إلى التأثير وتعديل الفكر والسلوك. وقد اعتمدنا في عملنا هذا على مدونة تتكون من خمسة أجزاء من آثار الإبراهيمي. ومنها توصلنا إلى أن خطابات الإبراهيمية ترتكز على أركان الخطابة الأساسية، وهي الإيتوس، والباتوس واللوغوس. وقد تضمنت هذه الأركان إستراتيجيات متنوعة: الحجاجية واللغوية ضمن ما يسمى بأفعال الكلام الضمنية والصريحة والسلالم الحجاجية. وفي ضوء هذه النتائج، أهيب بالباحثين في علم الاجتماع وعلم النفس أن يلتفتوا إلى ذخيرة الإبراهيمي فهي تحتوي على كنوز ثمينة.

الكلمات المفتاحية: *استراتيجيات؛ الحِجاج؛ تربوي؛ إصلاحي؛ أفعال كلام؛ سلالم حجاجية.*

Abstract

This research aims to define the most important speech strategies of Al-Ibrahimi and the components of the original pedagogical and reformist approach, in order to highlight its pedagogical and methodological value. In this we have relied on the

* **المؤلف المرسل**

theoretical approach of Aristotle, the founder of the theory of arguments in classical rhetoric, and of Chaim Perelman. The second is the speech act theory, according to which language is not information or a description of the world, but rather an act that aims to influence and modify thought and behavior. In our work, we have focused on a five-part corpus. From this, we concluded that discourses are based on the fundamental pillars of rhetoric. In view of these results, I call on researchers in sociology and psychology to pay attention to the heritage of Al'Ibrahimi, because it contains precious treasures.

***Keywords**: Strategies; argumentation; pedagogic; reformist, speech acts; argumentative scales*

مقدمة:

تميز الشيخ الإبراهيمي بملكة خطابية نادرة، وقد أوتي مقاليد اللغة والبيان بسبب إتقانه للغة ومختلف فنون البلاغة والحجاج، وهو ما كان يحول بينه وبين الخطأ واللحن. ولا يخفى أهمية هذا الجانب في القدرة على التأثير وتمرير الرسائل بكل مرونة، وما لذلك من خلفية ثقافية وأنثروبولوجية في التاريخ العربي الإسلامي، فقد كان العرب يحتفون بالخطيب المفوّه، ويحتقرون الخطيب إذا أخطأ أو لحن. أضف إلى ذلك أهمية العامل وما يضفيه على الخطيب من هالة وكاريزمة Charisme. ويعود هذا كله إلى سعة اطلاعه ومحفوظه من التراث الأدبي والبلاغي، وهو ما مكنه من ملكة قوية في الإلقاء والتصرف في التعبير. كما كان الشيخ متمكنا من الدراسات النفسية والاجتماعية لاسيما الطبائع والغرائز وإدراكه لأهمية مرحلة الطفولة وما يناسب كل مرحلة من مراحل الدراسة، ومعرفته بسيكولوجية الجماهير La psychologie des foules. لُقّب الشيخ "بمرشد المعلمين" نظرا لعمله الميداني الكبير في وضع البرامج والإصلاحات في التعليم العربي بجميع أنواعه على مستوى معاهد ومدارس جمعية العلماء. وتــثبت آثاره بأنه كان متميزا في الاستشراف التربوي، خاصة عبر الخطب والرسائل والمقالات التي تثبت اهتمامه الكبير بمرحلة السنوات الست الأولى، وخطورتها على عمر الناشئ حينما يجتاز العقد الأول من عمره بقليل، كما وضع خططا وبرامج غاية في الدقة لمراحل تخص سنوات الدراسة المختلفة، وبرامج تحضير الشهادات من بينها: "شهادة التعليم العربي الابتدائي"في رجب 1361 (يوليو 1942)، كما كان يركز على أهمية الجانب العملي في تكوين جيل

ناشئ صحيح التأدية للقراءة، طيّع اليد والقلم بالكتابة، محصلا لمبادئ الدين الإسلامي علما وعملا، ولمبادئ التاريخ الإسلامي الذي كان يعتبره من الدين.

وكانت وسيلته في ذلك الخطابة التي كان يعتبرها فنا من الفنون ويقرنها بفن التمثيل؛ إذ تساهم في التهذيب والتربية الفاضلة؛ بل ويراها عنصرا هاما في بناء الأمم لأنها عامل يقظة وتحفيز وثورة، وبالتالي فمنزلتها من مقومات الأخلاق منزلة الطعام والشراب من بين مقومات الجسد.

وإذا كان الأمر كذلك فما هي الخطابة وما مقوماتها لديه؟ وما هي العوامل الشخصية والثقافية والدينية المساعدة على امتلاكه شخصية قيادية مؤثرة، وما كان لذلك من تأثير كبير في عمله الميداني؟

وما هي أهم إستراتيجياته الخطابية والحجاجية المتبعة في برامجه الإصلاحية والتربوية؟

ولكي نوضح هذا كله سنتعرف عل ما يلي:

تقاطع المقومات الثلاثة للخطاب الفعال في خطب الشيخ الإبراهيمي، ودورها في نجاح إستراتيجياته الخطابية:

- الإيتوس l'Ethos حسب البلاغة الأرسطية، والبلاغة الجديدة، المرتكزتان على الجانب الحجاجي ومدى تأثير ذلك في الجمهور، واتجاه علم الاجتماع وتحليل الخطاب والتركيز على صورة الخطيب وقدرته الحوارية والتفاعلية، وما توحي به شخصية من جاذبية وتأثير.

- الباتوس le pathos ويتمثل هذا البعد في مدى التأثير الذي يحدثه الخطيب في الجمهور: وما يستخدمه من وسائل في إقناع الجمهور عن طريق إثارة عواطفه، وجعله يتضامن مع تصوره، ويتبع وجهة نظره.

- اللوغوس Le Logos ويتمثل فيما يقدمه الخطيب من إقناع وحجج؛ بحيث تكون المرسلة واضحة، ذات تفكير منطقي وأمثلة وشواهد فعالة ومناسبة وما يشكل ذلك من ملكات منطقية ومعرفية واجتماعية وآليات لغوية وسلالم حجاجية.

وسنقدم هذا كله في ضوء نظرية الحجاج ونظرية أفعال الكلام اللتين تتقاسمهما عدة ميادين، من بينها تحليل الخطاب. تعتمد النظرية الأولى بصورة أساسية على إرث أرسطو Aristote وبارلمان Chaïm Perlman. وبالرغم من فارق 20 قرنا بينهما، فإن الفيلسوفين لا يغيبان عن الذهن كلما ذكرت هذه النظرية. الأول الأب المؤسس للبلاغة والخطابة الكلاسيكية، وأول من قدم نظرية الحجاج، أما الثاني فهو رائد البلاغة الجديدة، إذ قام بمراجعة نظرية أستاذه، وقدم بلاغة من وجهة نظر فلسفية، وركز بشكل خاص على الحضور أو الجمهور l'auditoire. ويتفق الفيلسوفان في تطوير مفاهيم أساسية في الحجاج: الخطيب، الجمهور، وطريقة الحجاج والإقناع، وهما أهم مفهومين في هذا الميدان.

أما نظرية أفعال الكلام التي اشتغل عليها الفيلسوف الأمريكي سارل J.R Searle في كتابه Speech acts (1969) وطورها من بعده تلميذه الانجليزي J.L.Austin، ترى أن كل ملفوظ لساني هو فعل خاص، لا يهدف إلى الإخبار أو الإقناع فقط، بل إلى الفعل والتأثير وتعديل الفكر والسلوك. ومن ثمة لا تهدف اللغة إلى الجانب التواصلي فقط، بل تتجاوز ذلك إلى الإقناع بوجهة نظر المرسل والتأثير في المخاطَب وتعديل سلوكه وتوجيهه. كما تتجاوز وظيفة الحجاج والإفهام وتقديم الأدلة والبراهين على صدق القول، إلى تغيير سلوك المخاطَب ووجهة نظره حول العالم، وهو ما من شأنه خلق روح المبادرة والإرادة للقيام بالفعل أو الإحجام عنه، عبر توظيف آليات لغوية وبلاغية وسيكولوجية. وتنطلق نظرية أفعال الكلام من فكرة جوهرية تعتبر أن اللغة ليست وصفا للعالم أو تعبيرا عن أفكار بقدر ما هي مؤسسة اجتماعية تعمل على تحويل الأقوال إلى أفعال ضمن سياقات

خاصة؛ بل إن اللغة ذاتها، تعتبر سلوكا وليست أداة للتأمل والتفكير والإخبار ووصف العالم(Brocaps, 2006, p. 97) .

ولن نحاول هنا مقاربة خطابات الإبراهيمي التربوية والإصلاحية، باعتبارها ملفوظات لسانية مجردة، بل باعتبارها أفعالا كلامية وحجاجية ساهمت في العمل الإصلاحي والتربوي وتنشئة الأجيال وتربيتها.

أما الهدف من هذه الورقة، فهو البحث في مقومات المنهج التربوي والتوجيهي الأصيل للإمام محمد البشير الإبراهيمي، بغية إبراز قيمته التربوية والمنهجية، والكشف عن رؤيته الاستشرافية الفذة، وسلطته البلاغية المؤثرة.

1. الإيتوس L'éthos

1.1 الإستراتيجيات الخطابية

يعتبر مفهوم الإستراتيجية من المفاهيم الحديثة المنتشرة بين عدة ميادين وحقول معرفية متنوعة...وهذا ما يصعب من تحديد مفهومها بدقة .(Landowski, 1989, p. 230). حددتها الدراسات الغربية منذ الإغريق إلى يومنا هذا، بأنها موضوع أو هدف يتم تحديده بدقة، أو مجموعة من الأفعال المنظمة الموجهة لغاية محددة هي الحرب (Alanso Aldama, 2003, p. 29)وبذلك لا تختلف كثيرا عن المعنى المعجمي الذي وضع لها أصلا في اللغة اليونانية (Ibid).

أما في الدراسات اللغوية فقد استعير هذا المفهوم للدلالة على توجه خطابي معين في سياق خاص نحو متلق أو عدة متلقين وفق ما يعرف بفن التحكم والتنسيق بين الأفعال من أجل الوصول إلى الإقناع والتأثير ثم التحكم والتوجيه في مواجهة احتمالات مختلفة يمكن أن تعترض سبيلها، فيمكن احتواؤها بتخمين بعض الفرضيات المتضمنة في سلوك الآخرين. كما توصف بأنها إرادية وصعبة، ويكون ذلك مشروطا بإرادة الذات الفاعلة،

وتحقيق مجهود كبير ومستمر لما يعترض ذلك من عقبات (De Montbrial & Klein, 2000, p.525).

ومن هنا يمكن إرجاع إشكالية الإستراتجية الخطابية، حسب Gumpers، إلى العلاقة بين الموقف أو السياق والنشاط اللغوي، في مقابل التصور الكلاسيكي الذي تكون فيه النشاطات اللغوية متأثرة بالسياق، ولذلك فهو يرى أن السياق ليس معطى ماديا ولكنه نتاج للنشاط التخاطبي، وعليه فإن الإستراتجية الخطابية الفعالة تتضمن ثلاثة عناصر هي: الكفاءة التواصلية للمتخاطبين، ومبدأ الانسجام الخطابي وملاءمة التفسير المرتكز على استدلالات المحادثة. وتتضمن الكفاءة التواصلية اختيار الإستراتجية الفعالة، أي الإستراتجية المناسبة في موقف تواصلي معين(Simunic, 2004) ومن هنا " لا يعتبر الخطاب وسيلة فقط، بل هو غاية في حد ذاته، إضافة إلى كونه وسيلة إخبارية تهدف إلى التأثير، تكون خلفيته إستراتجية إقناعية وحجاجية (Ducrot & Anscombre, 1980, p. 7.8)

من أهم أهداف الخطاب هو إقناع الجمهور. ولذا حدد أرسطو ثلاثة مستويات أساسية يجب توفرها في الخطابات المؤثرة، وهي مستويات مازالت قائمة إلى اليوم: الإيتوس l'Ethos، الباتوس le Pathos واللوغوس le Logos. ومن خلال هذه الأركان الثلاث سنحاول مقاربة بعض خطابات الإبراهيمي التربوية والإصلاحية:

2.1 الكاريزما Le charisme

قبل التطرق إلى المستوى الأول من الخطاب المؤثر، نتعرف على أهم أضلاعه المتمثل في الخطابة، وتصور الشيخ الإبراهيمي لها؛ إذ يعتبرها فنا من الفنون، ويرى أنها لا تختلف عن التمثيل من حيث الأداء والإتقان في حالة إجادة تصوير المغزى وتشخيص الحقائق: "التمثيل والخطابة عند الأمم الحية توأمان، وأخوان شقيقان. وأن منزلتهما من دواعي التهذيب والتربية الفاضلة لأرفع منزلة، وان مكانتهما من بين مقوّمات الأخلاق لمنزلة الطعام والشراب من بين المقوّمات الجسدية. وما بنيت نهضة من النهضات

الأخلاقية في الأمم الجديدة إلا وللتمثيل والخطابة في بنائها القسط الأوفر والحظ الأولى...والخطيب ممثل إذا عرف كيف يقص الخبر وكيف يستخرج العبر، وكيف يسوق المؤثرات فيترك في نفوس سامعيه أعمق الأثر (الإبراهيمي أ، 1997، صفحة 67). ونلاحظ هنا اطلاع البشير الإبراهيمي على التراث الإغريقي خاصة مآثر هوميروس Homère الذي كان متمكنا جدا من فنون الخطاب، وكذلك نظريات أرسطو ومفاهيمه البلاغية والتربوية المعروفة.

من خلال تعريف الإبراهيمي للخطابة ندرك مدى فهمه لقوانين الخطاب، ووعيه لأهمية ذلك في الإصلاح وبناء النهضة في الأمة. وهو ما يفسر أثره الكبير في توجيه الحركة الإصلاحية، وما يجعل خطاباته تستجيب للركن الأول من الخطابة: "الإيتوس" خاصة المصداقية التي توجي بها صورة الخطاب عند السامع، وأدوات الإقناع الناتجة عن شخصية الخطيب، وما توحي به شخصية الخطيب من احترام وتقدير و"كاريزما" Charisme.

وهذا ما تثبته شهادات كبار العلماء والمصلحين حول شخصيته ومكانته الفذة على المستوى الوطني والعربي والإسلامي. وهل هناك أكبر من شهادة رفيق دربه في الإصلاح والتربية، العلامة ابن باديس رحمه الله، حين وصفه:" بفخر علماء الجزائر" (باديس، 1994، صفحة 156) ، ومنها شهادة الشهيد العربي التبسي الذي اعتبره قامة كبيرة في اللغة والبلاغة والأدب والخطابة و: "فلتةً من فلتات الزمان، وأن العظمة أصل في طبعه" (الإبراهيمي، 1997، صفحة 16). أما الأستاذ محمد الهادي الحسني فيقول:"وكان... في الصف الأول من أولئك العلماء الذين أذنوا في الشعب الجزائري لينهض من سباته، ويأخذ للحياة سلاحها، ويخوض الخطوب لاسترجاع حقوقه، واستعادة استقلاله، والثأر لكرامته" (الحسني، 1997، صفحة 26) وهو ما جعله يقضي معظم حياته في التربية والإصلاح وتربية النشء، ويبتعد عن تأليف الكتب ويهتم بتربية الأجيال،

منشغلا بمسؤولياته القومية في الحركة الإصلاحية والتربوية" (الإبراهيمي أ.، 1997، صفحة 6) في حين قال عنه الشيخ محمد الغزالي رحمه الله:"...كان لكلماته دوي بعيد المدى، وكان تمكنه من الأدب العربي بارزا في أسلوب الأداء وطريقة الإلقاء، والحق إن الرجل رُزق بيانا ساحرا، وتأنقا في العبارة، يذكرنا بأدباء العربية في أزهى عصورها...وكان في خُطبه يزأر كأنه أسد جريح، فكان ينتزع الوجلَ من أفئدة الهيابين، ويُهيج في نفوسهم الحَمِيَّةَ لله ورسوله، فعرفت قيمة الأثر الذي يقول: "إن مداد العلماء يوزن يوم القيامة بدم الشهداء" (الثقافة، 1985، صفحة 8).

وأخيرا، نكتفي في هذا المقام بما قاله الفيلسوفان منصور فهمي والأستاذ الكيلاني بعد الاستماع إلى محاضراته: "إن هذا المِنبر الذي يقف فيه هذا الشيخ ساحة مقدسة، ينبغي أن يدخلها الناس كما يدخلون الحرم. وقال إنه لم يسمع ولم ير- في حياته- من هو أفصح وأبلغ من الشيخ الإبراهيمي، ودعا جميع الأدباء والعلماء في الوطن العربي أن يلقوا إليه مقاليد اللغة والبيان. ثم خاطب الشيخ قائلا: "أنت ملك العربية لهذا العصر، ملكتَ ناصيتها ونواصينا" وبعد ذلك أعلن الأستاذ الكيلاني المبايعة (شيبان، 1997، صفحة 11).

وقد منحته براعته الخطابية مصداقية كبيرة وشخصية قيادية في المجتمع الجزائري، مما جعله يكتسب حنكة كبيرة في تمرير خطاباته بكل مرونة، وهو ما كان له الأثر الكبير في عمله الميداني في تنفيذ خططه الإصلاحية وبرامجه التربوية، فكان نتيجة ذلك تأسيس معاهد تشرف عليها هيئات علمية مؤلفة من مشايخ المدرسين، وظيفتها وضع البرامج وتنفيذها واختيار الكتب وامتحان التلامذة، وتوزيعهم على السنوات حسب الأهلية والاستحقاق، وهيئات مالية تقوم بجمع المال وضبطه وصرفه في مصالح المعهد التي تقررها الهيئات الثلاث مجتمعة، وهيئات مراقبة وضبط تقوم بتسجيل أسماء التلامذة ومراقبتهم خارج المعهد مراقبة دقيقة، وملاحظة سلوكهم من استقامة واعوجاج، وتطبيق

لائحة المعهد الداخلية عليهم، ويوكل إليها النظر في النظافة والصحة والعلاج بين التلامذة فيما يشجر بينهم. وكذلك وضع شروط لقبول التلاميذ من بينها السن وشهادة طبية تثبت عدم الإصابة بأمراض معدية (الإبراهيمي أ.، 1997، صفحة 173).

أما في المجال التربوي فكانت خطاباته ورسائله بمثابة برامج وخطط تصدر عن خبير متخصص في السلوك وعلوم التربية، لاسيما حين يؤكد على أهمية الاعتناء بالمراحل الدراسية، خاصة الفترة الأولى من التعليم في عمر الناشئ: "يجتاز التلميذ الناشئ هذه المراحل الست- إن لم يعقه عائق- حينما يجتاز العقد الأول من عمره بقليل، فيكون غذاؤه العقلي مسايرا لغذائه الجسمي، ويكون تكوينه الروحي جاريا مع تكوينه البدني في عنان واحد. ويكون نمو مداركه العقلية بالعلم والمعرفة مقاربا لنمو إحساساته النفسية بالطبع والفطرة، فيتلقى العقد الثالث من عمره- وهو عهد الإحساس بجمال الحياة- مزودا بإحساس آخر، وهو الإحساس بجمال العلم وشرف الفضيلة بالدين. ويتلقى هذا العهد الذي هو أيضا، عهد النزوات وتنبُّه الغرائز الفطرية، مسلحا بما يدفع غوائلها، ويشذب زوائده، ويهذب حواشيها" (الإبراهيمي أ.، صفحة 109). إذ على أساس هذه المرحلة يبنى مستقبل الأمة، فإن كان التكوين صالحا صلحت الآمة، وإن كان صالحا فسدت.

كما تبرز قوته الحجاجية في إقناع المعلمين والمسئولين على البرمجة والتخطيط التربوي، على تحمل رسالة التربية والإصلاح، وهذا ما يبرزه في رسالة مؤثرة مقدمة إلى المعلمين في تلك المرحلة الصعبة: " كلمات واعظة لأبنائنا المعلمين الأحرار": إن هذه الأمة- يا أبنائي-هي امتنا، وهي رأس مالنا شئنا أو أبينا، وهي عوننا على العلم، وهي مددنا وملاذنا، وهي نصرتنا ومعاذنا، وهي مناط قوتنا، ومظهر أعمالنا، فعلينا أن نراعي شعورها في غير واجب يترك، أو محرّم يؤتى، وأن نسير بها إلى الغاية في رفق وأناة، لا أقول لكم: سايروها على الباطل، وجَارُوها في البدع، وواطئوها على الضلال" (نفسه، صفحة 270).

ولا يكتفي الإبراهيمي في توجيه المعلمين بتقديم الوعظ، بل يقدم لهم مثالا حيا عن جهاده واستماتته في الدفاع عن مقومات الأمة وهويتها: "فذلك ميدان وقفنا فيه قبلكم موقف المُنكر المتشدد، ونازلنا أبطال الباطل حتى زلزلنا أقدامهم، ونكسنا أعلامه، وقد أرحناكم ومهدنا لكم السبيل..."وليعلم أبناؤنا معلمو هذا الجيل، أننا- ولا مِنّة عليهم- مهدنا لهم كثيرا من العقاب، وذللنا لهم كثيرا من الصعاب، وحللنا كثيرا من العقد الاجتماعية (نفسه، صفحة 110).

وتبدو مهارته الإستراتيجية هنا في توظيف أفعال كلامية ضمنية مثيرة للحماس والهمة في قلوب المعلمين، مثل وصف المعلمين بـــ"الجنود" وهي كلمة توحي بالتضحية والجهاد:"انتم جنود العلم، ولكلمة"جندي" معنى يبعث الروعة، ويوحي بالاحترام، ويجلب الشرف، ويُغلي القيمة، لأنه في غاية معناه حارس مجد، وحافظ أمانة، وقيم أمة"؛ لذلك كان من واجبات الجندي الصبر على المكاره واللزبات[1]. والثبات في الشدائد والأزمات (الإبراهيمي، 1997).

ويوضح في نفس السياق، بأن رجال التعليم لا ينفصلون عن جمعية العلماء؛ بل هم صورة مصغرة لها في نظر الأمة، وهو ما يحثهم على الشعور بتحمل المسئولية: وأنتم ممثلو جمعية العلماء في ناحية من أعمالها، وهي التربية والتعليم، فكل واحد منكم صورة مصغرة من الجمعية...فكونوا- في مظهركم ومخبركم- أمثلة صحيحة منها، واعلموا أن كل زلة منكم- وإن صغرت- محسوبة على الجمعية، منسوبة إليها" (الإبراهيمي، 1997، صفحة 271). وكل هذا نتيجة الأفعال الكلامية الهادفة إلى تحمل المسؤولية والتحذير من التقصير والإهمال.

وفي رسالة أخرى يصفهم بـــ "قادة الجيل الجديد في ميادين العلم" وهي رسالة موجهة لمجموعة من المعلمين، ينعتهم بـــ"الكتيبة المجهزة" لحرب الأمية وسط الشعب،

[1]- الشدائد .

باستخدام أسلوب ملحمي يتفق مع السياق التاريخي المتمثل في الجهاد والإصلاح:"...فجندت منهم أبطالا لا ينثنون ولا ينهزمون، ورشحتهم، فرشحت منهم سدادا للثغور وصدادا للطارقين...وإذا كانت جمعية العلماء قد أطلقت على مدارسها اسما واحدا وهو"التربية والتعليم" فهؤلاء هم المربون وهؤلاء هم المعلمون، وهؤلاء هم جنود العلم، وكفى بهذه الصفات شرفا وفخرا (الإبراهيمي، 1997، صفحة 265)".

2.1 الكفاية الإستراتيجية في المنظومة الخطابية عند الإمام الإبراهيمي

لا تكفي معرفة اللغة وحدها لنجاح العملية التواصلية؛ بل يجب أيضا معرفة كيفية استخدامهما في السياق الاجتماعي. والحقيقة أننا لا نتكلم بنفس الطريقة مع عدة مخاطَبين، في أماكن مختلفة أو حسب مقاصد متنوعة نريدها. بدون معرفة قواعد اجتماعيات اللغة التي تتحكم في اختيارات البنى اللغوية مقابل البنى الاجتماعية، وإلا بقيت معرفة اللغة مجردة بصورة كاملة، منقطعة عن الواقع" (Bachmann & Simonin, 1991, pp. 54-55). وهو ما يجعل العملية التواصلية في حاجة إلى فهم الأنساق الاجتماعية والثقافية وتبني استراتيجيات متنوعة في عملية التفاعل.

ويعتبر هذا أحد عوامل نجاح الإبراهيمي في بث مرسلاته منتهجا استراتيجيات خطابية وفق السياق بمفهومه التداولي، السياق اللغوي والسياق النفسي وسياق المقام، وبكافة عناصره من مرسل ومرسل إليه وما بينهما من عناصر مشتركة، وملاءمة pertinence حسب تعبير هايمس Hymes (1984) ، وهو أمر مهم في سيكولوجية الجماهير ومخاطبتها. وأهم شيء هنا معرفة العوامل المكونة للموقف التواصلي(شفهي أو كتابي) أو القرائن السياقية حسب غامبرز Gumperz، وكذلك التحكم في قواعد إرسال وتلقي

النصوص (Causa, 2014). وهو ما يكشف فعلا عن إستراتيجية خطابية محكمة وكفاية تداولية عالية تساعد على إدراك الموقف العام والسياق الخاص ومن أهم مكونات ذلك:

2. الباتوس le pathos

1.2 الاستراتيجية التضامنية

1 ويتمثل هذا البعد في مدى التأثير الذي يحدثه الخطيب في الجمهور: وما يستخدمه من وسائل غايتها إقناع الجمهور عن طريق إثارة عواطفه، وجعله يتضامن مع تصوره. واستخدام هذا المستوى لا يعني فقط تسخير الجانب العاطفي لإثارة المتلقي ولكن يسمح أيضا للجمهور بالتعرف على حجج الخطيب. وأفضل الوسائل للوصول إلى ذلك هو استخدام السرد أو رواية قصص تتطابق مع المنطق العقلي في موضوع ملموس وحاضر: ويظهر هذا في رسالة قوية، مثيرة للعواطف كتبها الإمام الإبراهيمي عن مدرسة "أولا سيدي إبراهيم".

2 وهي قرية معزولة تقع في الحدود الفاصلة بين مقاطعتي الجزائر وقسنطينة، وعلى مقربة من مضيق(أبواب الحديد) ذات الذكريات الأليمة؛ وهي أرض جدباء إلا من شجيرات التين والزيتون، ولكن عزيمة الرجال جعلت منها منارة فلاحيه وتربوية: "العزيمة أخت العقيدة، وهما كجناحي طائر للرجال وللأعمال، والعقيدة بلا عزيمة باطلة، وما نهض الرجال العظام بالعظائم إلا بعد أن صفت عقائدهم من شوائب الشك والتردد، وصحت عزائمهم على العمل النافع" (الإبراهيمي، صفحة 344). وهذا ما تجسد حقيقةً في الخطوة الكبيرة التي قام بها أبناء الجمعية في تشييدهم مدرسة عظيمة بعد أن شيدوا مسجدا، وفتحوا لها فروعا أخرى لتخفيف العناء على الأولاد البعيدة منازلهم، ويخاطبهم الشيخ بهذا الكلام المؤثر سنة 1950:"وفي هذه السنة تعلو هممهم درجات، فيخطون الخطوة الموفقة إلى تشييد مدرسة عظيمة بعد تشييد المسجد، في بقعة وسط بين تلك المجاميع من البيوت ولم يكتفوا بالمدرسة الأم، حتى فتحوا لها

فرعا في جيزة الوادي وسط مجموعة أخرى من البيوت ليخففوا العناء على الأولاد الذين تبعد منازلهم عن المدرسة الكبيرة وهم عازمون على بناء فروع لكل مجموعة" (الإبراهيمي، صفحة 345)"

3 لا تظهر قوة الشيخ في دوره الإصلاحي والتربوي؛ بل فيما يتميز من روح قيادية في تسيير وتوجيه وتحفيز أبناء الشعب على التعاون لجمع الحجر إلى الحجر والفلس إلى الفلس والرأي إلى الرأي- كما يقول- ويجعلهم يتقاسمون الاختصاصات كل في مجاله. للوصول إلى هدف واحد مشترك.

4 ويعبر في خطبه ورسائله عن إعجابه صراحة، إعجاب القائد المتمرس المتبصر بهذه الفئة الصالحة من المجتمع ، خاصة وأنه كان ينشر مثل هذه الرسائل والخطابات على صفحات جريدة البصائر ":إنني معجب بهذه الفئة الصالحة، داعٍ لها بالتوفيق والتسديد، راجع لجماعتنا العاملة للعلم أن يكون حظها في التعاون عليه كحظ جماعة سيدي إبراهيم" (البصائر، 1950).

5 ومن المواقف التي يشهد بها التاريخ للإبراهيمي رحمه الله، وقفته التاريخية إلى جانب الطلبة الجزائريين الزيتونيين وتأييده لهم في مطالبهم، منوها بشرعية إضرابهم، متفهما لمعاناتهم في تلك الفترة العصيبة مستنكرا مواقف الحكومة التونسية وتخاذلها آنذاك، وقد وجه هذه البرقية إلى لجنة صوت الطالب الزيتوني وشيخ الجامع الأعظم وإلى الجريدتين اليوميتين بتونس:"النهضة" و"الزهرة" وهو ما يدل على حزمه، وقوة تدبيره، واهتمامه بتكريمهم ومتابعة نشاطهم النضالي لسنوات عديدة بعد أن أغلقت الإدارة الاستعمارية المعاهد والمدارس العليا (الشعب، 2014).

6 فيكتب لهم هذه الرسالة التضامنية المطمئنة على حرص جمعية العلماء ومتابعتها لقضيتهم ومعاناتهم:"جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، بجميع شعبها ومؤسساتها العلمية وأتباعها- تؤيد بكل قواها مطالب التلاميذ الزيتونيين، وتعطف عطفا لا حد له

على قضيتهم وترجو أن يكون إضرابهم المشروع موصلا إلى الغاية التي يرجونها ونرجوها لهم، وتستنكر تصامم الحومة -إلى هذا الحد- عن إجابة رغباتهم" (الإبراهيمي أ. ، 1997، صفحة 346)

7 وفي التفاتة تضامنية، يوجه الشيخ رسالة إلى الطلبة الجزائريين في تونس بمناسبة إحياء الذكرى السابعة لوفاة الإمام بن باديس (أبريل 1947):"أحيي بتحيات الله المباركة الطيبة أبنائي المهاجرين في سبيله، لا أخص بتحية من ينتسبون إلى وطن، أو تجمعهم جمعية؛ بل اعم من يظلهم دين ويربطهم لسان، ويجمعهم جامع، أولئك كلهم أبنائي، يستوون في حبي لهم، وعطفي عليهم، وآمالي فيهم، آحادهم وجموعهم" (نفسه، صفحة 152).

2.2 الأفعال اللغوية الضمنية

ونلاحظ هنا التوظيف الرمزي والتاريخي في هذه الرسالة وهي إستراتيجية تضامنية هادفة، خاصة من خلال إدراكه للسياق التاريخي والوطني والرمزي المتمثل في ذكرى رحيل الشيخ ابن باديس باعث النهضة الجزائرية الحديثة. وهو ظرف قمين بأن يحفز الطلبة المهاجرين من أجل اكتساب العلم والمعرفة التي أفنى الشيخ الراحل حياته من أجلها، لتسلم الرسالة إلى أمثالهم من الأجيال، وفيها نلمس أفعالا لغوية ضمنية:

- الحث على تحمل المسئولية؛ إذ يحاول الشيخ الإبراهيمي بصورة رمزية وضمنية وذكية إبلاغ الطلبة الموجودين في الغربة، بهذه المناسبة التي تذكرهم برحيل ابن باديس، ليستلهموا منه القوة والمثابرة والصبر والجهاد من أجل ترقية هذا الوطن.

- التضامن مع الطلبة في الغربة: إشعارهم بأنهم أُرسلوا لأداء مهمة، وبأن جمعية العلماء المسلمين تتابعهم وتحفزهم وتذكرهم بأرض الوطن الذي هجروه من أجل العلم. وأن هدفهم الوحيد هو تشريف الوطن والأمة.

ويظهر هذا التضامن من مخاطبتهم باعتباره أبا وليس مسئولا متعاليا؛ وفـــي هـــذا النوع من التواصل يزيد المتلقي، خاصة إذا كان مهـــاجرا، تـــأثرا وحماســـة واســـتجابة وارتباطا بالوطن:" أحيي بتحيات الله المباركة الطيبة أبنائي المهاجرين فـــي ســـبيله" كمـــا يخاطب الأب أبناءه. وفي هذا ما يزيد من تأثرهم وتمسكهم بالوطن، مما يحول حماســـهم وحنينهم إلى الوطن، فيحاولون فداء وطنهم وتكريمه وتمثيله أفضل تمثيل.

- التذكير بأن العلم جهاد في سبيل الله_: ولا يخفى ما لكلمة الجهاد من مفعول سحري في نفوس هؤلاء الطلبة، فوجودهم خارج الوطن، ليس من اجل السياحة والترفيه، وإنما فـــي مهمة وطنية مقدسة.

- وحدة الدين واللسان_: يحاول الشيخ الإبراهيمي في هذه المقدمة أن يلقي في خلد هؤلاء الطلبة، بأنهم ليسوا وحدهم في هذه المهمة، بل إن مهمتهم تندرج ضمن النهوض بالأمـــة من خلال وحدة الدين واللغة، مما يجعل من هذه المهمة التي دعوا إليهـــا مهمـــة جامعـــة شاملة، تندرج ضمن إطار واحد، هو وحدة الأمة العربية والإســـلام المتمثلـــة فـــي هـــذا التضامن الذي يقضي على النشاز والتفرق. فهو مثل الأب لا يمكنه أن يفرق بين أبنائـــه، كما أن الوطن لا يفرق بين أبنائه المخلصين.

- إزالة المسافة بينه وبين الطلبة: ومثل عالم تربوي كبير يحاول تبليغ رسالته إلى طلبتـــه نجده ينزع الكلفة بينه وبينهم، ويخاطبهم مخاطبة الأب لأبنائه، ويتنازل عن لغة المســـئول الصارم المراقب والمحذر، ويوظف لغة الأبوة والحنان وينصح بدون رســـميات. وهـــذه الإستراتيجية الغالبة في رسائل الإبراهيمي، عندما يتعلق الأمر بالطلبة، وتلامذته وممثليـــه في شُعب الجمعية عبر الوطن، ومحرري الصحف، مثل الطيب العقبي والتبسي، وتوفيـــق المدني...رحمهم الله جميعا.

وهذا ما يؤكده فلاسفة اللغة المحدثين H.Paul Grice الذي يرى أن مبدأ التواصل اللغوي يخضع لمبدأ قاعدي، وقانون أساسي للخطاب سماه مبدأ التضامن أو المشاركة بين

المرسل والمرسل إليه-وهما العنصران المحوريان في المخاطبة (Grice, 1979, pp. 60-61).

يتمثل هذا النوع من الإستراتيجية بمحاولة المرسل بإزالة المسافة بينه وبين المرسل إليه، إذ يظهر احترامه ورغبته في المحافظة على ذلك، حتى يشعره بأنه قريب منه فلا ينفره. ويتم ذلك على أساس من التودد والتأدب في الحديث إليه ومخاطبته بما يفهم من ويستأنس لحديثه حتى يشعر بأنه يتحدث إليه دون خلفيات أخرى، حتى يتواصل معه على أحسن ما يكون يحس المرسل إليه كأن بينهما هدفا مشتركا. وفي هذه الحالة يبدو الطرفان متساويان وتستمر العملية من البداية حتى النهاية، بحيث تخلو من الجانب الرسمي، إذ يتم الفصل بين الصفة الوظيفية والصفة الذاتية. فتتأسس العلاقة الخطابية على اعتبار ما كان وما سيكون. ويدخل في هذا الإطار اختصار المسافات الاجتماعية، وذوبان الفوارق بين الطرفين كما هو الحال بين الشيخ الإبراهيمي /الطلبة. ويدخل في ذلك اعتبارات أخرى مثل القرابة والوطن والديانة ومحاولة المشاركة في المسائل الشخصية (الشهري، 2003، صفحة 46).

وتبدو شخصية الإبراهيمي من خلال كتاباته شخصية واثقةً عارفةً بموضوعها وهدفها المنشود، وحنكته السياسية والإصلاحية وتضامنه مع قضايا الأمة، وتحفيز المواطنين على الاتحاد في زمن الكوارث والشدائد، وهذا ما نجده في رسالة تحث على التضامن والوحدة لتجاوز كارثة تبسة (28 فيفري 1948) التي جرفتها السيول، حيث رأى في هبة الأمة وتضامنها دليلا على التقدم والنهوض، وبأنها جديرة بحريتها وقيادة نفسها وتبوئها مكانتها بين الأمم، ولكنه حذر من حالة التغافل، لأنه دليل على الغباء ووجوب الحرمان من الحرية، ويضرب لذلك مثلا بالدول الأخرى التي تعرضت لمثل هذه الكوارث (تركيا، ايطاليا وفرنسا) حيث تكاتفت الحكومات والشعب لتجاوز أزماتهم، وكيف كانوا يستعطفون المساعدات من الدول الأخرى. ولكنه يستدرك بأن وضعية الجزائر تختلف عن هذه الدول، فأصوات الشعب مكبوتة وحريته مصفدة، فما عليه إلا الاعتماد

على نفسه ويضرب المثل للأجيال القادمة بأنه شعب يشعر بالمسؤولية وتحمل أعباء الوطن: "وواجبنا في هذه المواقف أن نضرب المثل الأعلى للإحساس المشترك والشعور الإنساني والقيام بما يقتضيه منا الواجب الديني والوطني، وبذلك نضرب الرقم القياسي للأجيال الآتية بأننا أناس نشعر بالمسؤولية ونتحمل أعباءها مهما عظمت (البصائر، 1948).

3. اللوغوس Le Logos

1.3 الملكة المنطقية

أما المستوى الثالث فهو الإقناع عن طريق البرهنة والاستدلال والحجة، وتكون المرسلة واضحة، ذات تفكير منطقي والأمثلة والشواهد المستخدمة تكون فعالة ومناسبة. كما يكون المنطق واضحا في تقديم الحجج ودحضها. وهنا يحاول الخطيب أن يكون مقنعا في استعراض حججه، لأن الجمهور يتطلب فهما لوجهة نظره، قبل أن يتقبلها، وهذا ما يدخل ضمن الإستراتيجية الحجاجية والمنطقية التي هي مجموعة من الأفعال اللغوية المرتكزة على منطق خطابي متضمن داخل هدف أو قوة حجاجية (Tutescu, 2005). ويتوفر هذا الجانب على عدة ملكات وآليات:

: وتتمثل في التسلسل المنطقي الذي اتبعه الشيخ في كتابة رسالته التي بعث بها إلى الشيخ الطيب العقبي، بعد أن عادت جريدة الإصلاح للصدور، وهي الرسالة التي نشرها الشيخ العقبي في الصفحة الأولى من الجريدة في عددها الأول (1946/11/16) وفيها يعلن الإبراهيمي عن منهجه المنطقي التحليلي في قراءته للأحداث والظروف، خاصة وأن هذه الجريدة قد توقفت وعادت إلى الحياة مرة أخرى وهو ما بعث السرور في قلبه. ويوضح من خلالاها ما تتعرض له الصحف من ابتلاء مثلها مثل النفوس: " كذلك يبتلي الزمان الجرائد بمثل ما يبتلي به النفوس، ويأخذ منها ويدع، فلا يأخذ المؤسسة على فكرة إلا كما يأخذ السيل من الصخرة الصماء" (نفسه، صفحة 410) وعندما يعلن بأنه تحقق عنده ما لم

يكن يجهله، مستدلا بأن الأحداث مهما عظمت لن تؤثر في الهمم ولن تنال منها، ما دامت مخلصة لله راغبة، وفي هذا استنتاج منطقي بل وبديهي، خاصة إذا تقلدتها نفوس كبيرة مثل الطيب العقبي من أصحاب المبادئ الراسخة والعقائد الثابتة:"سرني من جريدة "الإصلاح" ما يسر كل معتنق للفكرة من وجود لسان يعبر عنها، وسنان يناضل دونها، وسرني فوق ذلك ما يسر بناة الإصلاح من معان لا تستوفيها كلمات في رسالة. وفي هذا دعم واضح للعزيمة الصلبة المناضلة من اجل القضية الوطنية خاصة إذا تعلق الأمر ببعث مشروع ثقافي إصلاحي من أهم أهداف الجمعية. ويعبر الشيخ عن تصوره بقوله: "وكل من يستحضر صورة "الإصلاحّ القديم و"الإصلاح" الجديد يرى أن الروح المديرة واحدة والفكرة واحدة، فلم يبق من الفوارق إلا بضع سنوات وهي ليست بذات أثر في حياة الفكر" (نفسه، صفحة 411).

وفي آخر الرسالة يشد على يد العقبي، ويدعمه واصفا عمله بالعزيمة "العُقبية" وذلك من اجل تثبيت مثل هذه المبادرات الرائدة، وإقالتها عثرات القلم وفتنة الرأي، في مجتمع كُممت أصواته وسُلبت حريته.

وبذلك فهو لا ينطلق من فراغ، وإنما من حقيقة واقعة ماثلة أمامه باعتبارها عينة لدراسة ظاهرة واضحة أمامه. وتفيد آثاره بمعرفته بحقائق التاريخ السياسي والنضالي الذي ينتصر فيه الثابتون والصابرون دوما، وهو ما يعتبره حقيقة تاريخية لا مراء فيها، ويعبر عن ملكته المعرفية والموسوعية التي لا يمكن لأحد أن يجادل فيها، إذ لم تقتصر معرفته على الجانب الديني واللغوي والأدبي؛ بل تتعداه إلى جانب العلمي والفلسفي وعلم الاجتماع البشري ويظهر من خلال كتاباته العديدة الاطلاع على مقدمة ابن خلدون، وكذلك علوم التربية وعلم النفس والسياسة وما يثبت هذا قوله: "ومما علمناه من شؤون الاجتماع البشري أن الكمال فيه نسبي إضافي، فما من كمال إلا وفوقه كمال، وان الكمال في المجموع متوقف على الكمال في الأفراد، وأن النَّقص في المجموع متوقف على النقص

في الأفراد، فمتى أخذ الأفراد بأسباب الكمال وسلكوا له وسائله كمل المجموع. ومتى قعد الأفراد عن تعاطي أسباب الكمال فشت النقائص في المجموع. وإنما تتفاوت حظوظ الأمم في الكمالات المكتسبة كالغنى والعلم والتضامن والتعاون والاتحاد والترقي في أسباب المعيشة. ويتضح من هذا كله أن كل ما يسمى من أحوال الأمم تطورا هو في الحقيقة مداورتها بين النقص والكمال صعودا وهبوطا " (الإبراهيمي أ.، 1997). وفي هذا يبدو تأثره واضحا بابن خلدون.

وتفيد آثار الإبراهيمي وسيرته أنه لا ينطلق من فراغ، وإنما من حقائق ماثلة أمامه باعتبارها عينات تدرس. ويقر بحقائق سياسية ونضالية خَبِرها عبر حقائق التاريخ السياسي والنضالي بحيث يكون الانتصار من نصيب الثابتين الصابرين دوما، وهو ما يراه حقيقة تاريخية لا مراء فيها.

2.3 الآليات اللغوية في الحجاج:

تعتبر الآليات اللغوية في الخطاب أفعالا لغوية

المفعول لأجله: وفي سبيل الوصول إلى غايته التداولية المتمثلة في الإقناع والتأثير، يوظف الإبراهيمي أدوات لغوية مثل المفعول لأجله الذي يعتبر لفظا من ألفاظ التعليل، باعتباره مصدرا يدل على سبب ما قبله ومبينا علته، بحيث أن من خصائص المفعول لأجله مشاركة عامله في الوقت وفي الفاعلية، مما يدل على قوة حجاجيته في الخطاب الإقناعي:"وأحقَّ الله الحقَ، وأبطل الباطلَ..." (الإبراهيمي أ.، أثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي)**.** كما ورد في نفس الخطاب المتعلق بفصل الدين عن الحكومة، أو فصل رمضان والأعياد عن قاضي الجزائر سنة 1949:" يوحي شيطان الاستعمار إلى الحكومة وحياً متتابعا لا فترة فيه" (نفسه، صفحة 129). ومن ذلك قوله أيضا في نفس السياق:" والدولة الفرنسية نفسها تعترف بهذه الحقيقة اعترافا صريحا" (نفسه، صفحة 127)...

وكذلك قوله"تواردت توارد القطا على منهل، وتزاحمت تـزاحم الحجـيج علـى منسك (نفسه، صفحة 243)"

وما يمكن ملاحظته هنا أن توظيف هذه الأداة البلاغية في سياق تشتد فيه نبـرة الخطـاب وقوته، مما يؤكد وعي الإبراهيمي التام بأسرار اللغة ومكامن قوتها وتأثيرها في المرسـل إليه؛ وهذا ما يعلل هالته الخطابية وسطوته على قلوب مخاطَبيه.

- لأن/ لكن **:** ترد الأولى في الخطاب لتبرير الفعل، أو تبرير عمله، وترد الثانية باعتبارها أداة حجاجية، تبرز مبدأ التقابل الحجاجي، الذي يربط بين ملفوظين، يتضمن الأول هدفا حجاجيا، مقابل الثاني، بحيث أن المرسل لا يأخذ بعين الاعتبار إلا النتيجة الأخيرة(Tutescu, 2003) :

"... واقترح اقتراحا فهمنا مغزاه من أول حرف، لهذه المناسبة، وهو أن يزور كاتب هـذه السطور والعُقبي وفرحات عباس رئيسهم الأعلى السيد الحاج مصالي، لأنه ممنـوع مـن الهبوط إلى الجزائر، وما كانت الحيلة لتخفى علينا، ونحن أعلـم النـاس بمسـالك القـوم وأساليبهم في الدعاية لأنفسهم، لكننا رجحنا شرف القضية على كل اعتبار، وقبلنا الاقتراح على طول الخط، فزرناه من الغد في جماعة" (الإبراهيمي أ.، صفحة 259) **.**

"....و**لأن** الوقت لم يحن بعد لزج الفتاة الجزائرية المسلمة في هذه المآزق" (نفسه، صفحة 276)

-أسفت لموت الشيخ أبي القاسم أعظم مما آسف لموت قريب،_**لأن** هذه الطائفة التي كـان الشيخ أبو القاسم أحد أفرادها إنما تتقارب على المشارب، لا على المناسـب، وتتصـاحب بالأرواح لا بالأبدان" (نفسه، صفحة 282)

"وما صلاح الدين إلا رجل كردي عادي لا يملك من ألقاب الشرف والحسب شـيئا، كـان يدعى يوسف بن أيوب وكفى، **ولكنه** كان صلاح الدين وحامي حمى المسلمين بحق، فهـو

قد رفع رأس المسلمين عاليا، وحطم الصليبيين تحطيما، ورد غاراتهم ردا قـــرر مصـــير حياة المسلمين" (نفسه، صفحة 299)

الآليات البلاغية في الحجاج

كما تعتبر الآليات البلاغية أفعالا لغوية :

الاستعارة :تتميز الاستعارة بأنها أكثر تأثيرا في الخطاب من اللفظ الظاهر، وذلك بسبب قوتها الحجاجية في الإقناع والتأثير في المرسل إليه، وهذا ما يجعلها مصنفة ضمن السلم الحجاجي، لأن توظيفها لا يقصد به الجانب الجمالي وحده، بل يتعدى إلى الجانب الإقناعي بحيث تؤدي إلى تغيير في المواقف والسلوك، من خلال كشفها البعد الإيحائي والمجازي في اللغة، بارتكازها على فعل كلامي ضمني من خلال المقايسة بين حدين متباعدين، فيتولد عن ذلك فكرة جديدة مستوحاة من فكرة سابقة لا يكون بينهما أي رابطة ما عدا علاقة التشابه (Fontanier, 1968, p. 99)

ويمكن تحديد ثلاث وظائف للاستعارة الحجاجية في الخطاب:

الوظيفة التقييمية: وهي مرتبطة أساسا بوجهة نظر المرسل واستحسانه واستهجانه حســب رؤيته:"طاف بالأمة الجزائرية في سنينها الأخيرة طائف من يقظة وانتباه لا عهد لها بهـــا في سنيها الغابرة، وتفشت تلك اليقظة في جميع طبقات الأمة كما يتفشى الروح الحيـــواني في أجزاء البدن كلها....وتنقلب النفـــوس منـــه بمـــا ينقلـــب بـــه الحـــي مـــن السَّـــوءة العريانة....أنقاض من الدين لابست الدين الحق حتى أصـــبحت تســـمى دينـــا، وأشـــتات متناقضة من الاستسلام" (الإبراهيمي ا.، صفحة 239)

يُبرز هنا رؤيته ووجهة نظره للوضع العام الذي تعيشه الأمة بعـــد أن أدرك أنهـــا استيقظت بعد ليل طويل، وأصبحت هذه اليقظة متفشية في جميع الطبقات بفعـــل الحركـــة الإصلاحية التي بدأت تؤتي ثمارها، بعد أن كان الناس من قبـــل يتمســـكون بمـــا يشـــبه الأنقاض التي لامست الدين الحق، ولذا شبهها بالأشتات المتناقضة.

الوظيفة المنظمة للمجاز الحجاجي: وفي هذا النوع من الاستعارة يقوم المرسل بالجمع بين الحدود المرجعية والحدود المجازية: "وأخلاط من عواري الميول والمشارب تلونت بها نفوس جوفاء حتى أصبحت تسمى أخلاقا، وسفاسف من لغو الحديث لا تثير ذكرى ولا تذكي حماسا، ولا تهز عاطفة، وقد غمرت المجامع حتى أصبحت تسمى أدبا. ومجموعة من الرطانات لا تجلي قصدا ولا تبين مرادا ولا تترجم عن مكنون، وقد استولت على الألسنة والأقلام، فأصبحت تسمى لغة (نفسه، الصفحات 239-240) "

هنا يحاول أن يجمع بين الحدود المرجعية للاستعارة وحدودها المجازية:الحدود المرجعية في عواري الميول والمشارب،هي الميول والمشارب، أما الحدود المجازية فهي استعارة الميول والأخلاق، وهو فعل ينم عن الاستلاب وضعف الشخصية، لأنها أمور ذاتية لا يمكن استعارتها، تمثل في الأصل جوهر الطبع الإنساني. نفس الشيء يمكن أن يقال عن النفوس بصفتها معنوية، فتتلوّن، وهو دليل على الاختلال والاضطراب والاستلاب وعدم الثبات على الأصل. التلون من وجهة النظر الأخلاقية يعتبر آثما. أما النفوس الجوفاء فهو كناية عن الجهل والفراغ الروحي والعلمي والثقافي مما يجعل صاحبه فريسة لأي طارئ كان فيتمكن منه...وغمرت مثلها مثل السيل الجارف فامتلأت بها المجامع نظرا لغثاثتها مثل غثاء السيل، نتيجة الفراغ الموجود. ونفس الشيء بالنسبة للرطانة التي استولت على الألسنة والأقلام، بدل اللغة الجميلة والبيان الساحر الذي تتميز به اللغة العربية، فالاستيلاء هنا دلالة على التفشي والتحكم.

والوظيفة التمييزية التي تظهر فيها شخصية المرسل من خلال إيحاءاته الموضوعاتية والثقافية، وما يتبع ذلك من قيم جمالية وفنية تجسد الفكر أو وجهة النظر: "وعلى رقعة من الأرض زكية الأغلال طيبة الغلال، تناهبتها الأيدي العاتية وتقاسمتها الكتائب المغيرة، حتى لم يبق لها منها إلا حظ الميت، قبر يمسح بالشبر، ولكنها على رغم ذلك تسمى وطنا. وعلى أوشال من الرزق يبضُّ بها الكد المرهق، وينتضح بها العرق المتصبب، وينطف

معها دم المهج، وتنتزع من أنياب الأفاعي انتزاعا ولكنها مع ذلك كله تسمى مالا...وعلى غثاء من الأناسي كغثاء السيل المتساوي الغيبة والمشهد...ولكن هذا الغثاء برغم ذلك كله يسمى أمة" (نفسه، صفحة 240)... سياسة مضطربة الجوانب، مقلقة الركائب، لا يقر لها قرار" (نفسه، الصفحات 240-241)

ويظهر هذا المقطع القوة التمييزية عند الإبراهيمي وإدراكه العميق لسياق الأحداث: فبالرغم من كل النكبات التي عرفتها هذه البلاد تبقى وطنا لنا : فبالرغم من التناهب والتقاسم، فالأرض زكية طيبة الغلال، معطاءة تجود ببعض الرزق نتيجة الكد المضني، فكأنه يُنتزع من أنياب الأفاعي انتزاعا، ومع ذلك يدرك باقتدار أن الأمر سيهون عاجلا أو آجلا. وفي هذا تحفيز وتفاؤل بالمستقبل لمواصلة العمل والنضال.

2-3 السلم الحجاجي L'échelle argumentative

السُّلم الحجاجي مفهوم قام بتطويره ديكرو(1973) Ducrot في إطار نظرية الحجاج في اللغة التي تعتمد على التدرج الحجاجي حيث: "يندرج المتكلم في وضعية تواصلية في خطاب معين فيضع ملفوظين ق1 و ق2 في مستوى حجاجي لتحديد ملفوظ "ر" يكون ناتجا عن برهنة القضيتين السابقتين(Plantin, 2016, p. 223)

وبالتالي يكون الملفوظان في السلم الحجاجي: ق و ك ينتميان لنفس السلم الحجاجي لمتكلم ما في وضعية ما، إذ اعتبر المتكلم القضيتين ق و ك متجهتين لإثبات نفس النتيجة ر، إذن، فهما تنتميان إلى المستوى الحجاجي لـ "ر". و فقط إذا اعتبر المتكلم أن هناك حجة أقوى من أخرى.

من أهم مقاصد السلالم الحجاجية Les échelles argumentatives الاعتماد على مبدأ التدرج في استخدام الحجج والأدلة، وفق ترتيب يخضع لمعطيات متعددة، منها سياق المقام، وسياق الحال والسياق الثقافي والاجتماعي وطبيعة الجمهور المتلقي، وبالتالي يكون السلم الحجاجي مجموعة قضايا تنتظمها علاقات تراتبية وقد تتحول العلاقة بين القضية

والحجة إلى علاقة شبه منطقية إذا كانت مجازية بالرغم من أنها تتجسد عبر أدوات لغوية. ففي حالة التراتب يقتضي السلم أن تكون كل قضية في الأسفل أدنى من أعلاها.

وهناك من يضع للسلم الحجاجي ثلاثة قوانين:

أ- قانون الخفض

ب - قانون تبديل السلم

ج- قانون القلب " (عبد الرحمن، طه 1998، ص.ص 277-278).

وهذا ما نجده عند برهنته على اختلال أركان الدين الأربعة، وما نتج عنها من مصائب وبلايا وآفات، ينطلق الشيخ في إستراتيجيه الخطابية في التدرج في تقديم الحجج وفق معطيات علاقة ترتيبية حسب مراتب معينة من السلم الحجاجي: "اختلت العقائد ولابسها هذا الشوب من الخرافات والمعتقدات الباطلة فضعفت ثقتنا بالله ووثقنا بما لا يوثق به. اختلت العبادات فخوت النفوس من تلك الآثار الجليلة التي هي سر العبادة والتي هي الباعث الأكبر على الكمال الروحي. واختلت الأحكام فانتُهكت الحرمات واستبيحت المحرمات وتفككت روابط الأسرة الإسلامية. وقُطعت الأرحام وتعادى المسلمون وتباغضوا وتنكر الأخ لأخيه، وضعف الوازع الديني الذي يهيئ النفوس للانطباع بطابع واحد فأصبحت مستعدة للتكيف بما يقبح وما يحسن- ثم غالب ما يقبح على ما يحسن فخرجت الفضيلة الإسلامية من عقل المسلم ومن نفسه حلت الرذيلة- ثم جاء الاحتكاك بالأجانب عن هذا الدين ومعهم عاداتهم وأخلاقهم فوجدت السبيل ممهدا، ووجدت نفوس المسلمين عورات بلا مدافع ولا محام فتمكنت فيها ومكنت لغيرها، والشر يعدي، وكان من نتائج ذلك ما ترون من انحلال وتفكك (نفسه، صفحة 133). ويمكن معاينة ذلك كما يلي :

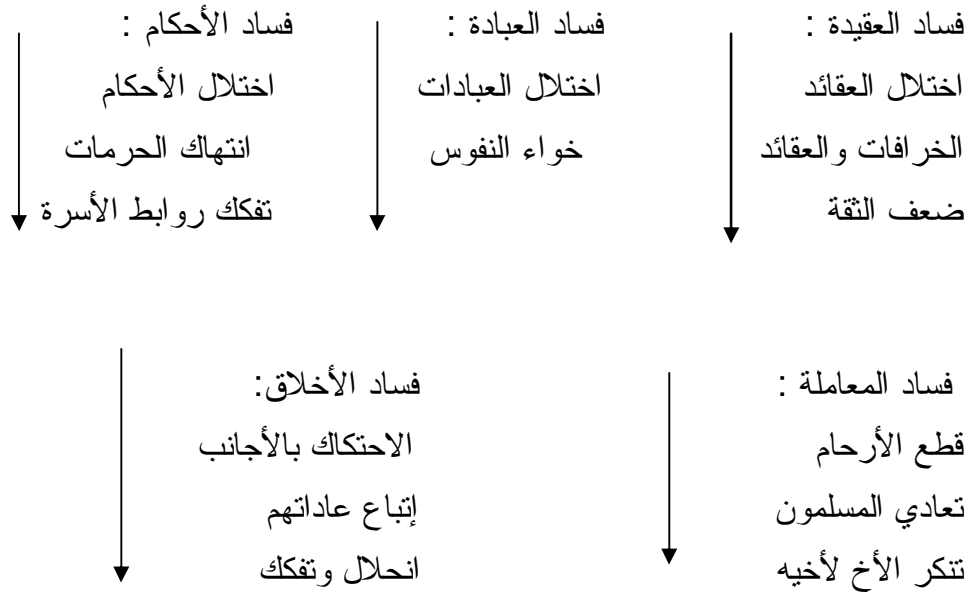

وقد لا يعتمد السلم الحجاجي على الأدوات اللغوية أو شبه المنطقية فقـــط ، إذ يمكـــن أن يوظف الخطيب فيه شواهد وأمثال سائرة وحكم واقتباسات فلسفية ودينية، وهي كثيرة فـــي آثار الإبراهيمي لا تكاد تحصى.

"إن جمعية العلماء تعمل لسياسة التربية لأنها الأصل، وبعض ساستنا -مع الأسف- يعملون لتربية السياسة، ولا يعلمون أنها فرع لا يقوم إلا على أصله؛ وأي عاقل لا يدرك أن الأصول مقدمة على الفروع.." (نفسه، 1997، صفحة 65)

4. خاتمة:

وعلى الجملة، فقد بايع العلماء والفلاسفة البشير الإبراهيمي في مجمع اللغة العربية في القاهرة ملكا للغة العربية، وهذا لم يكن اعتباطا بل خلاصة ملاحظة وتجربة، وهذا ما توصلنا إليه من خلال تتبع استراتيجياته الخطابية، انطلاقا من توفرها على الأركان الأساسية البلاغيون والفلاسفة، قديما وحديثا: وكانت كالآتي:

- الإيتوس L'éthosحسب البلاغة الأرسطية، والبلاغة الجديدة، بحيث ثبت لدينا كفاية إستراتيجية وبراغماتية في منظومة الإبراهيمي الخطابية.

- الباتوس le pathos ويتمثل هذا البعد في مدى تأثير خطب الإبراهيمي في نشاطه الإصلاحي والتربوي، بفضل ما يستخدمه من وسائل إقناع الجمهور عن طريق إثارة عواطفه، وجعله يتضامن مع تصوره، ويتبع وجهة نظره، موظفا أفعالا لغوية ضمنية أتاحت له إستراتيجية تضامنية سهلت من عمله الميداني.

- اللوغوس Le Logos ويتمثل فيما يقدمه الخطيب من إقناع وحجج؛ بحيث تكون المرسلة واضحة، ذات تفكير منطقي وأمثلة وشواهد فعالة ومناسبة وما يشكل ذلك من ملكات منطقية ومعرفية واجتماعية وآليات لغوية وسلالم حجاجية.

اللوغوس Le Logos الإقناع عن طريق البرهنة والاستدلال والحجة، باستخدام آليات لغوية وبلاغية وسلالم حجاجية اعتمادا على مبدأ التدرج في استخدام الحجج والأدلة، وفق ترتيب يخضع لمعطيات متعددة، منها سياق المقام، وسياق الحال والسياق الثقافي والاجتماعي وطبيعة الجمهور المتلقي.

قائمة المراجع والمصادر

المراجع باللغة العربية:

الإبراهيمي، أحمد طالب. (1997). *آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي* (المجلد 1-5). بيروت.

ابن باديس، عبد الحميد. (1994). *آثار عبد الحميد بن باديس* (الإصدار 1، المجلد 6). (الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع، المحرر) الجزائر، لنان: دار الغرب الإسلامي.

الحسني، محمد الهادي. (1997). *مقدمة آثار الغمام محمد الشير الإبراهيمي* (الإصدار 1، المجلد 1). بيروت: دار الغرب الإسلامي.

شلبي، عبد الجليل عبده (1981)، الخطابة وإعداد الخطيب، دار الشروق، ط.1،القاهرة.

الشهري، عبد الهادي بن ظافر. (2003). *استراتيجيات الخطاب ، مقاربة لغوية تداولية* (الإصدار 1). (دار الكتاب الجديد /دار الكتب الوطنية، المحرر) بنغازي، ليبيا.

شيبان، عبد الرحمن. (1997). مقدمة آثار لإمام محمد البشر الإبراهيمي.ج 2.

عبد الرحمن، طه. (1998). *اللسان والميزان او التكوثر العقلي*. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

مجلات ودوريات

البصائر. (22 مارس, 1948). *البصائر* (28).

البصائر. (10 أفريل, 1950). *البصائر* (115).

الثقافة. (مايو, 1985). الشيخ محمد البشير الإبراهيمي. *الثقافة* (87)

الشعب. (13 05, 2014). إضراب الطلبة الزيتونيين.

المراجع باللغة الاجنبية:

Aldama, Juan Alanso .(2003) .Modèles sémantique de rationalité et rationalité stratégique chez Lawrence d'Arabe .Modèles linguistiques

Austin, J.L. (1962). How to do things with words (2 nd ed.), ed. J.O. Urmson and M. Sbisá. Cambridge, MA: Harvard University Press**.**

Bachmann ,Christian & Simonin, Jacky .(1991) .Langage et communication sociales . Paris: Hatier,Didier.

Brocaps, M. (2006). Introduction à la pragmatique, les théories fondatrice. (D. B. Université, Éd.)

Causa, Mariella .(2014) .OpenEdition journals Openeditionsearch: **Article 6. Paru dans Les Carnets du Cediscor, *12 | 2014*.**

De Montbrial, Thierry & Klein, Jean.(2000) . Dictionnaire de stratégie .Paris: PUF.

Ducrot, Oswald & Anscombre, Jean-Claude .(1980) .L'argumentation dans la langue . Pierre Mardaga Editeurs Bruxzlles: Mardaga

Fontanier, Pierre .(1968) .les figures du discours .Paris: Flammarion.

Grice, Herbert Paul .(1979) .Logique et conversation .Communication،(30)

Landowski, Eric .(1989) .La société réfléchi .Paris: Seuil

Plantin,Christian .(2016) .Dictionnaire de l'argumentation, une introduction aux études d'argumentation .Lyon: ENS Lyon.

Searle, John R. 1977. `The philosphy of language` (Oxford University Press.

Searle, J. (1969). Speech acts: an essay in the philosophy of language. Cambridge, UK: Cambridge University Press

Simunic, Zrinka .(2004) .une approche modulitaire des stratégies discursives dujournalisme politique .Université de Genève ،faculté de lettre .Genève :Université de genève

Tutescu, Mariana) .février, 2005 .(L'argumentation .l'argumentation dans le discours Monica CIUCIU) .(Université de Bukarest،Bucurest ،Romanie.